مدرسة باريس السيميائية في أعمال رشيد بن مالك بين التبسيط والاختزال

الدكتورة: وافية بن مسعود
جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة/ الجزائر

خصص الملتقى الدولي" السيمياء والنص الأدبي" في طبعته الثامنة، بدراسة ترجمة وتلقي مدرسة باريس السيميائية، في النقد العربي، من أجل توصيف تمثله لهذه المدرسة النقدية، مقاربة نظرية، وممارسة إجرائية، بعد ظهورها في النقد الأوروبي، منذ أزيد من نصف قرن، ضمن ما يمكن أن نسميه بمتابعة الحركة النقدية العربية المعاصرة، التي تفاعلت مع مناهج نقدية عديدة، بعضها سياقي والبعض الآخر محايث، وقد شكلت النظرية السيميائية- مدرسة باريس تحديدا- تيارا واسع الانتشار عند العرب، فقد ظهرت أسماء نقدية كثيرة في العالم العربي، اهتمت بهذه المدرسة، لعلنا نذكر منها: السعيد بوطاجين، أحمد يوسف، سعيد بنكراد، عبد اللطيف محفوظ، محمد ناصر العجيمي، وغيرهم كثر.

كما دارت أسئلة كثيرة حول التمثل الصحيح لهذه المدرسة، والأخطاء الكثيرة التي وقع فيها الناقد العربي، خصوصا ما تعلق بمصطلحاتها ومرجعياتها، ومدى جدوى تفعيلها على كل النصوص العربي، مما جعل النقاد يقعون في مأزق يحتاج إلى عودة للوراء، من أجل مناقشة نقله لهذا المنهج، وتبيان نقاط قوته وضعفه.

اختارت هذه المداخلة موضوعا لها الدراسات النظرية المقدمة من طرف الباحث الجزائري" رشيد بن مالك"، حول السيميائية السردية(مدرسة باريس)، انطلاقا من حصر الدراسات المكتوبة من طرفه، بعيدا عن ترجمته للنصوص النظرية والتطبيقية للمدرسة، رغم كوننا ندرك أن تجربة هذا الباحث في الترجمة تعد أكبر بكثير من جهوده في الكتابة عن تلقيه لهذه النظرية.

ولعل هذا ما يجعلنا نتساءل منذ البداية: كيف لباحث متمرس في سيميائية مدرسة

باريس أن يركز على الترجمة بدرجة أكبر من التأسيس النظري، غير أننا ركزنا على ما قدمه الباحث نظريا لسببين اثنين هما:

1- الكتب التي قدمها رشيد بن مالك نظريا لاقت رواجا كبيرا في أوساط الطلبة والباحثين الجامعيين، بسبب قيمتها العلمية من جهة، وطريقته البيداغوجية التي تناول بها المفاهيم، والإجراءات الخاصة بالمنهج السيميائي.

2- محاولة اكتشاف النسق الفكري الذي اعتمده الباحث من أجل استثمار المعطيات العملية التي قدمتها مدرسة باريس السيميائية، من خلال طرح تساؤل أساسي: هل تلقي جهود هذه المدرسة يخضع لدى هذا الباحث إلى التعميم والشمولية، أو الانتقاء والاختزال؟ ما الذي تم تثبيته من معلومات للقارئ العربي وما الذي جرى تفاديه؟ وما أسباب ذلك؟

وستتم مناقشة الجانب التنظيري للمدرسة عند هذا الباحث من خلال كتبه الثلاثة:

- مقدمة في السيميائية السردية، سنة 2000
- البنية السردية في النظرية السيميائية، سنة 2001
- السيميائية أصولها وقواعدها، سنة 2002

ينقسم البحث إلى قسمين اثنين، يتصل الأول بتلقي المرجعيات الفكرية التي ساهمت في ظهور هذه المدرسة، وتم استثمارها لبناء هيكلها المصطلحي والإجرائي، ويتصل الثاني بطريقة تقديم الإجراءات التحليلية المقترحة من طرف المدرسة، لتحليل النص السردي، وفهم طرق إنتاج الدلالة.

1- المرجعيات الفكرية التي ساهمت في تشكيل مدرسة باريس عند رشيد بن مالك

تعد كل المناهج المعاصرة- وإن ركزت على الاهتمام بالنص والدراسة الداخلية له- نتاج خلفيات مرجعية ساهمت في تشكلها. وهذه الخلفيات الفكرية إحدى ركائزها التي يتكئ عليها الهيكل المصطلحي والمفاهيمي للمناهج. تعود أهمية معرفتها ودراستها إلى الإضاءات التي تقدمها للباحثين، من أجل تطور المسار العلمي والنقدي في العالم من جهة، كما أنها تقدم معلومات مرجعية تسمح لهم بفهم الإجراءات المعتمدة للمنهج، وحدوده التي يتأطر داخلها.

نضيف إلى ذلك أن المناهج المعاصرة لم تعد محايدة، فهي تتداخل مع حقول أخرى،

تجعل الساحة النقدية في تفاعل مستمر، يأخذ منه اللاحق من السابق، ويستفيد منه السابق من نتائج اللاحق، فالسيميائية في مدرسة باريس مثلا، وإن بدأت أدبية، فقد احتكت بنصوص أخرى، اجتماعية وثقافية، مثل سيميائية الأهواء والسيميائية البصرية، لذلك لم يعد من المجدي تراجع النقد العربي عن التفاعل مع التطورات الفكرية والنقدية في العالم.

نورد هذه التوطئة لأن كتب" رشيد بن مالك" التي جرى انتقاؤها مادة لهذه المداخلة، كانت المرجعيات والإرهاصات التي ساهمت في ظهور مدرسة باريس السيميائية، جزءا هاما منها. وهذا يعود إلى هاجس الباحث المرتبط بالتأصيل لهذه المدرسة قبل كل شيء، سواء من خلال طرح رؤيته الخاصة أم من خلال ترجمة نصوص روادها التي تهتم بهذا الجانب.

إن الباحث يظهر وعيا شديدا بخصوص نقل أي منهج علمي غربي، إلى البيئة العربية، لأن هذا النقل سيصطدم بمسألة المرجعيات، ثم بمسألة المصطلحات بالدرجة الأولى، قبل أن يبدأ الدارسون والباحثون محاورة مفاهيمه وإجراءاته التطبيقية. هذا التوجه السليم الذي تجاهله بعض الناقلين، ظنا منهم أنهم يتعاملون مع مناهج تتحدد خصوصيتها بمسائلة النصوص داخليا، والنصوص لا تختلف في قوانين تشكيلها هنا وهناك. غير أن ذلك أدى بعد فترة إلى فصل الإجراءات عن خلفيتها المفاهيمية، كالوقوع في تحليل نص سيميائيا بتصورات بلاغية.

ينبه" رشيد بن مالك" إلى أهمية المرجعيات الخاصة بالمنهج السيميائي السردي، في مواقع متعددة من كتبه؛ حيث يقول في كتابه" مقدمة في السيميائية السردية":" سنسعى في هذا البحث إلى دراسة الأصول اللسانية والشكلانية التي انبنت عليها النظرية السيميائية (مدرسة باريس) واستمدت منها مصطلحيتها العلمية مع إجراء تعديلات على مفاهيمها تقصيا في ذلك الانسجام مع التوجهات الجديدة للبحث السيميائي المعاصر"[1]

لم تتوقف عملية التأصيل عند كتابه الأول، وإنما استمر مصرا على رؤيته هذه في كتابه" البنية السردية في النظرية السيميائية"، فالعمل العلمي الجاد في منظوره مرتبط أساسا بتهيئة الأرضية التي يعتمد عليها، قبل أن يبدأ ببسط قوانينه وطرقه في محاورة وتحليل

النصوص، والبحث السيميائي عن المسارات الدلالية للنص، لا يمكن أن يكون بطريقة سطحية أو انتقائية، فهو يحتاج إلى الفهم الصحيح للمنهج ومعرفة خصوصيته.

تبقى عملية الاستيعاب والتمثل هذه مرتبطة أساسا في نظر الباحث رشيد بن مالك بـ" إدراك الفروقات الجوهرية بين كل تيار. تأسيسا على هذه الممارسة المبنية، يسهل على القارئ تبين مستويات التحليل السيميائي، وهم الخلفيات الحقيقة التي تقف وراء المعيقات المنهجية والتضاربات المفهومية المهيمنة على عدد قليل من البحوث السيميائية العربية الراهنة"[2]، فإذا أخذنا السيميائية على سبيل المثال نجد أن المقارنة بين سيميائية مدرسة باريس وسيميائية بيرس تظهر اختلافات جذرية في التعامل مع مسألة العلامة، على صعيد الخلفيات الفلسفية المختلفة، بالإضافة إلى اختلاف الإجراءات المتبعة في التحليل وأهدافه كذلك.

إن هذا التصور يوضح إشكالات تلقي العالم العربي للنظرية السيميائية السردية، التي يمكن أن نجملها فيما يلي:

1- تمثل النظرية السيميائية السردية(مدرسة باريس) بطريقة علمية سليمة، يستدعي معرفة خلفيتها الفكرية المفصلة.

2- معرفة المناهج السابقة والمعاصرة للنظرية من أجل تحديد الفروق بينها، ومعرفة سماتها جيدا

3- أغلب التضاربات المصطلحية والمفاهيمية التي حدثت بين الدارسين العرب للنظرية كان سببها غياب الشرطين السابقين، أو تغييبهما.

يقدم" رشيد بن مالك" أصول مدرسة باريس السيميائية بصفتها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول متصل بالدراسات اللسانية، وضّح فيه الباحث أثر المبادئ اللسانية على المفاهيم السيميائية السردية، مع متابعة تطورها كذلك، ونذكر في هذا المقام: " دوسوسير"(F. de saussure)،" إيميل بنفنيست"(E.Benveniste)،" هيالمسلف" (L.Hjelmslev)،" تشومسكي"(A. N. Chomsky).

أما القسم الثاني متصل بالدراسات الشكلانية، وضح فيه الباحث أثر التوجه الشكلاني الروسي في النظرية السيميائية السردية، خصوصا أعمال" فلاديمير بروب" (Vladimir Propp) من خلال كتابه:" مورفولوجية الحكاية"(Morphologie du

.(conte

سيعتبر القارئ المبتدئ والبسيط أن الأصول المذكورة في بحوثه هي أهم الأصول؛ إذ لا توجد إشارة من الباحث تورد أنه قام بعملية انتقائية لها، رغم أن الباحث" رشيد بن مالك" يستعين في ترجمته لكتاب" السيميائية أصولها وقواعدها" بـ" عز الدين مناصرة" من أجل كتابة قراءة مونتاجية عن تاريخ السيميائيات وعلاقتها بالأدب، شارحا المصادر الأساسية للنظرية[3]

إن الملاحظة الأولية لهذه المرجعيات المذكورة تظهر أن الباحث ركز على عينات محددة، لكن هذه العينات ليست كل المرجعيات المؤسسة للنظرية- مدرسة باريس تحديدا، فهناك أصول أخرى- تضاهيها أهمية لم يجر ذكرها، كالشعرية، والسرديات وأعمال كلود بريمون... إلخ.

1-1- الأصول اللسانية المقدمة في أعمال" رشيد بن مالك":

يعتمد الباحث" رشيد بن مالك" مبدأ الانتقائية في إثبات بعض المفاهيم اللسانية التي تتدخل مباشرة أو بشكل غير مباشر في البناء المفاهيمي للنظرية السيميائية؛ حيث يثبت مفاهيم، ويتبع مسارها التطوري في السيميائية ويغفل أخرى، ولعلنا نبدأ بالمفاهيم اللسانية المثبتة لديه، وهي:

- مبدأ المحايثة: (Immanence)

لقد اعتمدت السيميائية السردية على عدة مبادئ أساسية لتشكيل حدود ومسار التحليل السيميائي السردي للنصوص، ويعد مبدأ المحايثة أحدها، حيث" تسعى السيميائية إلى دراسة التجليات الدلالية من الداخل مرتكزة على مبدأ المحايثة... وقد كرس فرديناند دو سوسير... هذا المبدأ اللساني في كتابة دروس في اللسانيات العامة، في أثناء حديثه عن استقلالية اللسانيات في موضوعها ومنهجها"[4]

لا نجد توضيحات وافية من طرف الباحث، عن أثر هذا المبدأ في النظرية السيميائية؛ حيث نجده يصل هذا المفهوم اللساني بالنظرية السيميائية المقترحة من طرف" غريماس" انطلاقا من بنائه للمربع التصديقي.[5]، دون تقديم المسار الذي انتقل من خلاله، ولا نفهم ذلك إلا عندما نيمم وجهنا شطر ترجماته، فتمنحنا هذه الترجمات ما

نبحث عنه، فإذا كان النص كلا دلاليا، فإن الكشف عن السيرورة الدلالية عند مدرسة باريس يتم بداخله وعن طريق" وصف الأشكال الداخلية لدلالة النص أو المتفصلات المشكلة للعالم الدلالي المصغر"[6]، ولا يمكن أن نبحث عن تفسير للدلالة بأشياء أخرى خارج النص. إننا هنا أمام ما يسمى بمبدأ المحايثة، وهو الذي يؤطر قوانين التحليل الدلالي، وسيستمر هذا المبدأ بالظهور في بعض الإجراءات السيميائية التي تتبناها النظرية.

كما أننا نلاحظ خللا ببيوغرافيا في الكتاب؛ حيث يشير الهامش إلى كتاب سوسير في حين تقدم المعلومات من معجم" غريماس":" السيميائية"[7]، ويضيف المعجم توضيحات لم يتم إثباتها في الكتاب، تتعلق بالإشكال" الأونطلوجي"(ontologique) الذي تطرحه، لأن التأكيد بأن البنيات السيميائية هي بنيات محايثة، يعني طرح التساؤل حول طبيعة وجودها؛ إذ يمكن أن ينظر إليها باعتبارها وصفا، أي بتوضيح بسيط للأشكال المحايثة، أو ينظر إليها تشكيلا للبعد الإنساني[8]

هذا يعني أننا إذا أقررنا بأن التحليل الداخلي المحايث للنص أكبر مناسبة لفهم إنتاج الدلالة، فإننا يجب أن نبرهن على صحة وجود هذه البنيات الدالة بعيدا عن علاقتها بالفعل الإنساني أو السياقات التي تحيط بها.

- مبدأ الاختلاف:(Différence)

يستخدم" رشيد بن مالك" رؤية" غريماس" لتقديم هذا المبدأ، الذي يرى أن ف.د. سوسير أرسى قواعد هذا المفهوم واستعمله للدلالة على أن المفاهيم المتباينة تكون معرفة ليس بشكل إيجابي من مضمونها، وإنما بشكل سلبي من علاقتها مع العناصر الأخرى للنظام، واستعمله غريماس من أجل توضيح الاختلافات المنتجة للمعنى في النص، من خلال العلاقات التي تربط الوحدات الدلالية القاعدية بعضها ببعض[9]

يوضح الباحث كيف تطور مسار مبدأ الاختلاف عند" غريماس"، وانتقل من مبدأ لساني إلى مبدأ تنظيمي لتشكيل الدلالة وإنتاجها في النص، أو بعبارة أخرى استثمر غريماس مفهوم الاختلاف لتأطير العلاقات العروفة داخل" المربع السميائي"(Carré sémiotique) وهي: التقابل، التضاد، التناقض، والتضمن[10]، إذن فمبدأ الاختلاف بالنسبة لغريماس ييسر لنا فهم طبيعة الآليات التي تحكم إنتاج الدلالة، وقيم النص فالبنية

المنطقية لأي نص تدرك من خلال الكشف عن اختلافات التمفصلات الصغرى للدلالة.

- مفهوم القيمة:(Valeur)

يرى" رشيد بن مالك" أن دارس السيميائية، لا يمكن أن يفهم تصورها للقيمة ما لم يفهم ارتباط هذا المفهوم باللسانيات، قائلا:" لا نستطيع أن نفهم المسألة الخاصة بالنظام السيميائي للقيمة في" المعنى"[1983]، ما لم ندرك أصوله الدلالية المستمدة أصلا من دروس ف. دي سوسير الذي يعود إليه الفضل في إرساء مفهوم القيمة في الدراسات اللسانية"[11]

ثم يوضح أن القيمة لدى سوسير تنشأ من التباين، فهي" تبدو محكومة بهذا المبدأ المفارق ذلك أنها تتشكل دائما من:

- شيء متباين يمكن أن يبدل بشيء تحدد قيمته بعديا
- بأشياء متشابهة قابلة للمقارنة بتلك التي قيمتها قيد الفحص"[12]

كما يشرح بعد ذلك ارتباط مفهوم القيمة مبدئيا- بتصور سوسير- بمظهرين، الأول يتعلق بالمظهر المفهوم والثاني يتعلق بالمظهر المادي[13]، ملاحظا ارتباطها بمجال الاقتصاد، في حين يشير" غريماس" إلى أن مفهوم القيمة يتجاذبه أكثر من مجال، نذكر منها: اللسانيات، المنطق، الاقتصاد، السياسة، بالإضافة إلى السيميائية[14]

ينقل رشيد بن مالك بعد هذه الخلفية اللسانية، مفهوم القيمة إلى السيميائية، وتحديدا تصور" غريماس" المثبت في كتابه" في المعنى"؛ حيث تتصل القيمة بالموضوع المرغوب في النص، فالموضوع المستهدف ليس في الواقع إلا ذريعة لاستثمار القيم، كما أن " الموضوع لا يدرك في استقلاليته بل في تحديداته، وأن هذه التحديدات ترتسم في المظهر الخلافي للموضوع الذي يؤسس قيمته اللسانية، ويعد في ذات الوقت سنادا مرهونا بوجود القيم. تأسيسا على هذا فإن التقاط المعنى لا يلقى في طريقه إلا القيم التي يرتهن إليها الموضوع في وجوده"[15]

يتوقف الباحث عند هذا الحد في الحديث عن موضوع القيمة داخل النظرية السيميائية، في حين يمنحه غريماس، في كتابه" في المعنى2"، تفريعات أخرى تتصل بموضعة القيم داخل المستوى الدلالي وربط علاقتها بالمستوى التركيبي، ومستوى التمظهر، بالإضافة إلى طرق تضعيف موضوعات القيمة داخل النصوص السردية[16]

- الكفاءة والأداء:(Compétence et performance)

ارتبط مفهوم" الكفاءة والأداء" باللسانيات التوليدية عند" تشومسكي" انطلاقا من نظريته الرائدة عن كيفية إنتاج الإنسان لعدد لا متناه من الجمل مقابل عدد محدود من القواعد اللغوية التي يعرفها؛ أي إن الكفاءة هي المعرفة الضمنية للغة عند الإنسان، أما الأداء فهو طرق التنفيذ الفعلي لهذه المعرفة بين الأفراد.

وقد اتكئ غريماس على هذين المفهومين، لكن بطريقة مختلفة، وهذا ما نبه إليه " رشيد بن مالك" قائلا:" ينبغي أن ننظر إلى قراءة غريماس لهذا المشروع على أنها تعديل جوهري في الاقتراب المنهجي من الظاهرة اللغوية في جانبها التواصلي واستيعاب الإرث اللساني(سوسير) وتمثله في مشروع يرتكز أساسا على المصطلحية الشومسكية التي يتبناها غريماس ويصهرها في مفهمة جديدة تولي أهمية للعناصر التي تدخل في تشكيل الكفاءة وللبعدين المعرفي والتداولي للآداء"[17]

هذه الملاحظة تعني أن النظرية السيميائية نقلت المفهوم باتجاه جديد؛ لأن ما يجب التركيز عليه أن الكفاءة والآداء بمفهوم تشومسكي سيتم دمجها في مصطلحية سيميائية جديدة، تخضع لشروطها وأهدافها.

يستمر الباحث بعد ذلك بترسيخ تصور الكفاءة اللسانية بوصفها معرفة الفعل في النظرية السيميائية؛ أي الشيء الذي يجعل حدوث الفعل ممكنا، مع أنها تكون مستقلة عنه؛ أما الأداء فيرى أن غريماس يميز بين نوعين، نوع يستهدف امتلاك قيم الجهة، ونوع آخر يستهدف امتلاك وإنتاج القيم الوصفية[18]

تتقدم إذن معرفة الفعل ضمن مشروع شامل هو" نظرية الجهات"(Théorie des modalités) التي طورها" غريماس"، فـ" استنادا إلى التمييز الدقيق الذي وضعه أ.ج. غريماس بين معرفة الفعل والفعل، يمكن أن نقول إن كل سلوك مبرر يفترض برنامجا سرديا مضمرا وكفاءة تضمن تنفيذه"[19]

يعمل رشيد بن مالك بعد توصيف المشروع السيميائي المتصل بمعرفة الفعل، على تحديد الجهات التي تشكلها؛ حيث تنقسم إلى جهات مضمرة، تظهر فيها إرادة الفعل ووجوب الفعل، وتقوم بتأسيس الفاعل، وجهات معينة، تتضمن معرفة الفعل وقدرة الفعل،

وتقوم بتأهيل الفاعل[20] أما الأداء(الفعل)، فليحقه بجهة التحقيق التي يسقط فيها الفاعل عناصر معرفة الفعل على أدائه[21]، فالفعل يؤطر الملفوظات السردية للنص، مشكلة الحالات والتحولات التي يمر بها.

تعد الكفاءة والأداء من أكثر المفاهيم التي تم تتبعها بدقة في كتب" رشيد بن مالك"، انطلاقا من بعدها المرجعي اللساني، ووصولا إلى استعمالها السيميائي، بأدق تشعباته، مما يقدم للباحث مرونة في استيعاب التطور المفاهيمي الذي قدمته مدرسة باريس السيميائية.

بعد هذا التقديم للمرجعيات اللسانية المعتمدة من طرف مدرسة باريس، ننتقل إلى عرض المرجعيات الأخرى التي ضمنها الباحث كتبه، تلك الخاصة بالأصول الشكلانية للنظرية.

1-2- الأصول الشكلانية المقدمة في أعمال" رشيد بن مالك":

يورد رشيد بن مالك في مقدمة حديثه عن الأصول الشكلانية للنظرية السيميائية ما يلي:

" لا نستطيع أن نرصد الأصول العلمية للبحث السيميائي بقطع النظر عن المظهر التنظيري العام لبحوث الشكلانيين الروس التي ظهرت خلال الحقبة الممتدة من 1915-1930"22، مما يوضح الأثر الكبير الذي خلفه الفكر الشكلاني في النظرية بوصفه مرجعية تؤكد على الخصوصية البنيوية للنصوص من جهة، ومسألة خاصية التسريد في النصوص من جهة أخرى.

ثم يورد اسم" فلاديمير بروب" ضمن هذه القائمة، ومع ذلك ما يلبث أن يضيف في معرض كلامه عن الشخصية قائلا:" يعتبر نفسه بنيويا قبل التتويج النهائي للبنوية. وهذا يدل دلالة قاطعة على استقلالية بروب الشخصية بالنسبة إلى تأثيرات جماعة الشكلانيين، ومع ذلك فإن هذه الاستقلالية لم تمنعه من تبني مبادئ علمية عامة تتوافق مع التوجهات الفكرية للشكلانيين"[23]، مما يبعث على التساؤل هل كل باحث يتبنى بعض مبادئ مدرسة ما يحسب عليها، إذ يمكنه أن يعد شكلانيا روسيا في حالة واحدة هي إذا كان منتسبا إلى الجماعة نفسها، وهذا ما نفته بعض الدراسات المؤرخة للشكلانية الروسية مثل تلك

الدراسة التي قدمها" فيكتور إيرليخ"(Victor Erlich) بعنوان:" الشكلانية الروسية" (Russian Formalism)[24]

اشتغلت الدراسات السيميائية على طرق تشكيل المضامين، وأبرز علاقاتها، وهذا انطلاقا من المحاولات الأولى التي أسسها فلاديمير بروب، من خلال بحثه في طبيعة الحكايات الشعبية الخرافية ومختلف الأشكال التي تتمظهر من خلالها، ولعلّ أبرز ما وصل إليه هذا الباحث هو استنتاجه الهام؛ إذ يقول إن كل محكي فيه" متغيرات وثوابت، تتغير أسماء الشخصيات الدراماتيكية(وكذلك صفات كل واحد منها) لكن أفعالها ووظائفها لا تتغير، ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن الحكاية غالبا ما تعزو أفعالا واحدة لشخصيات مختلفة، وهكذا يمكننا من دراسة الحكاية حسب وظائف شخصياتها الدراماتيكية"[25]

إذن هناك وظائف معينة تشكل البنية الأساسية للمحكي، لا تتغير مهما تغيرت حواملها أو الشخصيات التي يسند إليها تقديمها للمتلقي، وهذه الأخيرة تختلف باختلاف المحكيات وأساليب عرضها.

وقد خلص بروب إلى أنّ أهم ما يجب علينا الاستناد عليه في دراستنا هو " الوظيفة"(fonction) ويحددها بأنها" فعل شخصية تعرف من وجهة نظر أهميتها لمسيرة الفعل"[26]، وهذا يعني أنها على الرغم من أهميتها، تبقى دون فعالية إذا لم نأخذها داخل إطار علاقتها بباقي الوظائف الأخرى، وتأثير هذا التفاعل على إنتاج الدلالة.

أن طريقة تحليل بروب للحكايات الخرافية الروسية كانت خطية، فهي تلتزم بمتابعة تسلسل الوظائف، الواحدة تلو الأخرى، وفق نظام ثابت ومحدد، ولذلك يحدد أربعة عناصر أساسية تحكم هذا التحليل، وهي:

.1. تقدم وظائف الشخصيات عناصر ثابتة باقية في الحكاية على الرغم من الكيفية التي تمت بها أو بواسطة من تم تحقيقها، وتشكل هذه الوظائف أجزاءً أساسية للحكاية.

.2. عدد الوظائف المعروفة للحكاية الخرافية محدد- وهو 31 وظيفة-.

.3. ترتيب الوظائف دائما واحد، فعلى الرغم من أن كل الحكايات لا تعطينا الدليل على كل الوظائف لكن هذا لا يغير إطلاقا قانون الترتيب، فغياب وظائف معينة لا يُغيّر ترتيب البقية.

.4. تعتبر كل الحكايات الخرافية طرازاً واحدا من ناحية بنيتها[27]

تبعا لهذه الخلفية يرى" رشيد بن مالك" أن النموذج البروبي يستمد" قوته الإجرائية من مرونته وقابلية تطبيقه على النصوص السردية. وتكمن أهميته المنهجية وفائدته العلمية في قدرته على إبراز مبدأ الاختلاف على طول الخط السردي. استنادا إلى هذا النموذج، يمكن أن نقول إن الحكاية تبرز- ولو تحت أشكال متنوعة- تمثيلا عامليا مشروطا بطبيعة العلاقات التي تقوم بين الشخصيات والوظائف المسندة إليها في صلب القصة"[28]

يعتمد الباحث على هذه الخلفية ليناقش بعدها النموذج العاملي لغريماس بوصفه استثمارا مكثفا للنموذج الوظائفي البروبي، فهذه الثنائيات العاملية تعد نتاج الدوائر الوظيفية، مع التعديلات التي قدمها غريماس وحصر فيها الوظائف(31) في ستة عوامل، وجعل حركة العلاقات بين العوامل تعتمد على المهام الثلاث المذكورة عند بروب، وهي: المهمة التأهيلية، المهمة الأساسية، والمهمة التمجيدية[29]

غير أننا نشير إلى ان الباحث لم يوضح جانبا آخر من أهمية النموذج البروبي، لأن هذا النموذج ساهم إلى حد بعيد في نقل التسريد من اعتباره نمطا تعبيريا في الدراسات السردية الشكلية إلى اعتباره نظاما ومستوى قارا في كل النصوص[30]، وهذا ما جعل غريماس يجعله مكونا من مكونات تحليل المستوى السطحي للنص، بالإضافة إلى المكون الخطابي، مهما اختلفت النصوص

وإذا كان رشيد بن مالك قد استفاض في الحديث عن أثر النموذج البروبي في النظرية السيميائية، خصوصا غريماس، و" جوزيف كورتيس"(Joseph Courtès)، فإنه لم يشر إلى جهود باحث آخر، هو:"كلود بريمون"(Claude Bremond) في كتابه " منطق المحكي" (Logique du récit)[31]

إنّ هذه الخطية الصارمة في التعامل مع العلاقات الموجودة بين الوظائف داخل المحكي هي التي جعلت العديد من الباحثين يعيدون النظر في هذا النموذج، وهم المشتغلون بحقل السيميائية السردية على العموم، ولعلّ أهم من حاول الخروج بهذا التصور من طبيعته المبسطة إلى تطور قد يتأقلم أكثر مع النصوص الأخرى التي تحمل نوعا من التعقيد، لا يمكننا معه أن نطبق عليها هذه الطريقة الخطية في التحليل، كان"كلود بريمون" الذي قرر أن يوسع

التحليل عن طريق إنشاء ثلاثيات، فهو يرى أنّ كل متتالية أولية (séquence élémentaire) تتكون من ثلاث وظائف يذكرها على التوالي:

1- وظيفة تفتح إمكانية ما لمسار تحت شكل سلوك أو حدث مفترض.

2- وظيفة تحقق هذا الافتراض تحت شكل سلوك أو حدث أثناء مرحلة الفعل.

3- وظيفة تغلق هذا المسار تحت شكل نتيجة محصل عليها[32]

رغم ان عمله هذا أعاد صياغة النموذج الوظائفي لبروب واستثمرت مدرسة باريس أعماله، كما هي الحال لدى غريماس، خصوصا ما تعلق بنظام المتتالية أو المخطط السردي للفواعل داخل النصوص[33]

2- إجراءات تحليل النص عند مدرسة باريس

لم يقدم الباحث" رشيد بن مالك" في كتبه الثلاثة، المنظومة الإجرائية الشاملة للنظرية السيميائية(مدرسة باريس)، وإنما اكتفى بتقديم مجموعة من الإجراءات المتفرقة والمنفصلة؛ حيث يقدم مفاهيم أولية، وليس رؤية شاملة لمستويات التحليل السيميائي، فنجد مفاهيم مثل" الملفوظ السردي"(L'énoncé narratif)،" البرنامج السردي" (Programme narratif)،" نظرية الجهات"، والمربع السيميائي(Carré sémiotique).

كما أننا نشير إلى أن الحديث عن هذه المفاهيم كان مرتبطا في كتابه" مقدمة في السيميائية السردية" بالأصول اللسانية أو الشكلانية للنظرية، وفي إطار تتبعه لسيرورة انتقالها من مجالها العلمي الأولي إلى وصولها حقل السيميائية، ولذلك كان اهتمامه بالدرجة الأولى منصبا على رصد الروابط وتوضيح المفاهيم أكثر من إعطاء القارئ العربي منظومة إجرائية متكاملة لمدرسة باريس السيميائية. أما كتابه" البنية السردية في النظرية السيميائية" فقد اقتصر على تحديده للمفاهيم المتصلة بالبرنامج السردي فحسب، دون التطرق إلى المكون الخطابي أو المستوى العميق للنص.

إن هذا يجعل الباحث المتتبع لهذه المدرسة وأعمال الباحث" رشيد بن مالك"، يلاحظ نموذج تبسيط المعرفة الهادف إلى إدراج هذه الإجراءات الغربية إلى الفكر العربي بسلاسة، لا تقود إلى قطيعة بين دال المفاهيم ومدلولها في ذهن الباحثين. وهو الأمر الذي لم

يخفه في جهوده التنظيرية، أو في انتقائه لترجماته؛ حيث نجده في كتابه" السيميائية أصولها وقواعدها"، معقبا على اختياره بحثا للسيميائيين" جون كلود جيرو"(J.C.Giroud) و" لوي باني"(Louis Panier)، الموسوم بـ" السيميائية نظرية لتحليل الخطاب" قائلا: " أثارت انتباهي هذه الدراسة لما تتسم به من بساطة في الأسلوب، وتمثل واضح لقواعد النظرية السيميائية، وتدعيمها بتمارين تطبيقية يحتكم رصد مستويات التحليل فيها إلى بناء خاضع لتدرج يرقى به القارئ من الملموس إلى المجرد، ومن البسيط إلى المعقد"[34]

يتحرى الباحث إذن الأعمال التي يترجمها، ويضع شروطا ومعايير من أجل ذلك، يجملها فيما قاله أعلاه، وهي: البساطة، ووضوح الفكر، والجمع بين التنظير والتطبيق. يظهر ذلك دافعه خلف هذا التوجه، وهو تيسير نقل هذه المعرفة الجديدة إلى القارئ العربي، حيث ينتقل تدريجيا من تبسيط النظرية إلى ولوج أدق تفاصيلها تعقيدا

لكن هذا لا ينفي وجود بعض أشكال اختزال المعرفة الناتج عن الانتقائية، ومحاولة اختيار الأهم بين عناصر التصورات السيميائية الكثيرة. ويمكننا أن نناقش بعض الأمثلة في أعماله:

- الملفوظ السردي:(Enoncé narratif)

لا يتوقف اهتمام" رشيد بن مالك" بالخلفيات اللسانية، فكلما يدرج مفهوما جديدا يعود إلى التذكير بدور القواعد اللسانية، في دعم مقترحات النظرية السيميائية(مدرسة باريس) عند حدود المستوى العميق، الذي يتصل بالدرجة الأولى بتنظيم قيم النص الدلالية والعلاقات القائمة بينها، وإنما ينتقل إلى المستوى السطحي للنص؛ إذ يشير" رشيد بن مالك" أن النظرية استفادت من مقترحات" لوسيان تينيير"(L.Tesnière) حول" بنية الجملة البسيطة" التي جعل مركزها الفعل الذي يربط عناصرها الباقية، مما جعل السيميائية السردية، تستفيد منه لتحديد الملفوظ السردي القاعدي للنص، وبناء العلاقات بين العوامل انطلاقا من الفعل؛ أي الوظيفة التي يؤديها العامل في المستوى السردي للنص[35]

- البرنامج السردي:

يقدم الباحث" رشيد بن مالك" البرنامج السردي، وملفوظات الحالة والتحول باجراء تبسيطي، يبدأ من تحديد علاقة المفهوم بالرياضيات، ثم يقدم أسس المفهوم

وعناصره، موضحا حركة الحالات والتحويلات التي يمارسها الفاعل المنفذ في علاقته بموضوع القيمة[36]، غير أن الطرح الذي قدمه لم يتجاوز المرحلة الأولى التي رسمها غريماس؛ حيث لا نجد إلا إشارة سريعة إلى تشكل البرامج السردية المعقدة، قائلا:" قد يتحول البرنامج السردي البسيط إلى برنامج معقد complexe تحولا مشروطا بالمرور الاضطراري عبر برنامج آخر"[37]

يتوقف الباحث عند هذا الحد، دون أن يتوغل في توصيف البرامج المعقدة وطريقة تشيكلها داخل النص، الأمر الذي يعد على غاية من الأهمية، فقد راجع غريماس النموذج البروبيو طوره لأن تسلسله وخطيته لم تكن تستجيب للبنيات السردية المعقدة، وهو ما جعله يوضح أن النص السردي يمكن أن يتحول فيه برنامج سردي بسيط إلى" برنامج قاعدي"(PN.de base) يحتوي على" برامج استعمالية"(PN.d'usage)؛ إذ يتحدد البرنامج السردي في النظرية السيميائية بوصفه سلسلة من التحويلات التي تتابع على أساس علاقة الفاعل بالموضوع، ويتكون من العديد من التحويلات المتفصلة (articulées) والمتدرجة(hiérarchisés)[38]، مما يدل أن البرنامج السردي على الرغم من كونه وحدة بسيطة تتشكل مع حالات وتحويلات، إلا أنه قابل للتعقيد والتوسع.

ويشير غريماس إلى أن التوسع أو التعقيد في البرنامج السردي يظهر وفقا لهذه الطرق الأربع:

1- أن تجارب التضعيف أو التثليث لا تشكل في نهاية الأمر سوى مضاعفة كمية للبرامج السردية، والدلالة الوظيفية لهذه البرامج(داخل الترسيمة السردية) واضحة، وهي التكثيف والتعميم.

2- مضاعفة موضوعات القيمة تؤدي إلى مضاعفة البرامج السردية(فالقزم ينقذ إخوته أولا ثم يحصل على الثروة ثانيا)

3- العلاقة الاحتوائية(hypotaxique) يمكنها أن تحكم برنامجين أو أكثر، فالبرنامج السردي المخصص للاستعمال يسبق البرنامج الرئيسي(لكي يحصل القرد على الموز عليه أن يحصل على عصا أولا).

4- يمكننا إحصاء البرامج السردية المرتبطة فيما بينها والخاصة بعملية تحويل الموضوعات

والتواصل بين الذوات.[39]

يجعلنا هذا نتجه إلى القول بأن الباحث قد قام بعملية انتقائية للمفاهيم السيميائية في حين أن مدرسة باريس عرفت بالتحليل الداخلي للنص من خلال رؤية إجرائية شمولية، وفي معرض حديثنا هذا يمكننا أن نذكر أمثلة من أعمال باحثين منتسبين إلى المدرسة، مثلما هي الحال في أعمال غريماس، ففي كتابه" الدلالة البنيوية"(sémantique structurale)[40]، نجد برمجة كلية للتصور السيميائي للمدرسة، انطلاقا من الشروط الأساسية لعلم الدلالة، ثم البنية الأولية للدلالة، ثم العمليات التنظيمية والتوصيف الدلالي، إلى أن يصل إلى تقديم نموذج وصفي لكيفية تحليل الدلالة داخل النص السردي.

لا يقتصر هذا التصور الإجرائي على غريماس فحسب، بوصفه رائد مدرسة باريس السيميائية، وإنما انتقل هذا التقليد إلى زملائه، أمثال:" جوزيف كورتيس" الذي يكتشف قارئ كتابه" مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية"(Introduction à la sémiotique narrative et discursive)[41]، مقربة منهجية تغطي مستويات التحليل السيميائي الثلاثة: المستوى العميق، المستوى السردي، والمستوى الخطابي، بالإضافة إلى نموذج تطبيقي.

نقول هذا، لأن ما عرف عن الباحث" رشيد بن مالك"، هو تبنيه الكلي لأفكار وجهود هذه المدرسة السيميائية تحديدا؛ إذ لم تخرج دراساته وترجماته عن هذا الحقل، فالمدقق البسيط لببليوغرافيا أعماله، سيكتشف اعتماده الكلي على أعماله مؤسس المدرسة " غريماس" وبعد ذلك أتباعه؛ ثم بحثه الدائم عن أسباب عجز المنظومة التربوية العربية في إيصال هذه المعرفة إلى القارئ العربي؛ حيث يشير إلى ذلك قائلا:" نذكر تلك المتعلقة بافتقاد القارئ العربي إلى المرجعية التاريخية لهذه البحوث وافتقارها إلى الأرضيات البحثية التي انطلقت منها والتيارات العلمية التي مهدت لظهورها، والفوضى المصطلحية التي تعد السمة الغالبة في الخطاب النقدي العربي الجديد"[42]

وجب أن ننوه في معرض إجمالنا لما ذكر في هذه الدراسة أن من أهم خصائص كتب الباحث" رشيد بن مالك" أن التعامل مع الإجراء كان مرتبطا دائما ببعده التأصيلي، فقبل أن يبدأ بتوضيح طريقة عمل إجراء تحليلي يقوم بربطه بنشأته الأولى، ميسرا للطلبة

والدارسين رحلة الذهاب للبحث عن خلفياته، وموضحا لهم أبعاده الكلية، وهذا النظام التيسيري للمعرفة السيميائية، يضاف إليه جانب التمثيل الذي يجعل المعلومة تصل بأبسط الطرق وبأوضح المسالك لطالبها.

- نستخلص أن الأصول التي تمت مناقشتها في الكتابين لم تقدم في رؤية شمولية، كأن الباحث كان يخشى التورط في عميقا فيها فلا يفهم من طرف الباحثين.

- كتب الباحث" رشيد بن مالك" تعتمد على الترجمة أكثر من التنظير، أو المزاوجة بينهما، ما عدا كتاب" مقدمة في السيميائية السردية" الذي كان يتراوح بين مدخل نظري ونموذجين تطبيقيين

- إن اتجاه رشيد بن مالك إلى ترجمة أعمال منظري مدرسة باريس السيميائية، وتركيزه على هذا المسار، قد أبخس حق جهده الخاص في إعادة قراءة هذه المرجعية النقدية الضخمة، فقد حرم الباحث العربي من إمكانية واسعة لإعادة بناء المشروع السيميائي بتصورات خاصة، خصوصا إلى ركزنا على الإمكانيات التي يمتلكها الباحث فيما يتصل بتبسيط المركب والمعقد في المفاهيم والإجراءات السيميائية، وإن كنا نعلم أن جهد الباحث له جولات أخرى لم تكتمل بعد في هذا المجال تحديدا.

- إن الباحث في تعامله مع المرجعيات الفكرية للنظرية، ركزه على بعض المعطيات اللسانية لأهميتها، وإغفاله بعضها الآخر، كما أن تقديمه للمفاهيم السردية كان دائما مرتبطا بتقديمه للخلفيات اللسانية والشكلانية.

مراجع البحث

1- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة، الجزائر، 2000، ص05
2- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، 2001، ص07
3- ينظر: ميشال آرفيه وآخرون، السيميائية- أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002، ص 17-63
4- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص09
5- المرجع نفسه، ص09

6- جون كلود جيرو ولوي بانيه، السيميائية نظرية لتحليل الخطاب، ت: رشيد بن مالك، السيميائية، أصولها وقواعدها، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص 107

7- A.J.Greimas,et J.Courtes, Sémiotique -Dictionnaire raisonné de la théorie du langague, Hachette, paris, 1993, p p 181-182

8- Ibid, p p 181

9- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص10، نقلا عن:

A.J.Greimas, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Hachette, Paris, 1979

10- المرجع نفسه، ص 11-15

11- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، ص 17

12- المرجع نفسه، ص 17

13- المرجع نفسه، ص 19

14- A.J.Greimas, et J.Courtes, Sémiotique- Dictionnaire raisonné de la théorie du langague, p 414

15- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، ص 20

16- Algirdas.Julian.Greimas, Du sens 2 essai sémiotique, seuil, paris, 1983, pp24-25-26-27-28.

17- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة، الجزائر، 2000، ص 19

18- المرجع نفسه، ص19

19- المرجع نفسه، ص20

20- المرجع نفسه، ص20-21

21- المرجع نفسه، ص22

22- المرجع نفسه، ص28

23- المرجع نفسه، ص29

24- ينظر: فيكتور إيرليخ، الشكلانية الروسية، تر: محمد الولي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب/ بيروت، 2000.

25- فلاديمير بروب، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، ت أبو بكر أحمد باقادرو أحمد عبد الرحيم نصر، ط1، النادي الأدبي الثقافي، المملكة العربية السعودية، 1989، ص75.

26- المرجع نفسه، ص76.

27- المرجع نفسه، ص 76-77-78-80.

28- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص 30

29- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص 30-33

30- A.J.Greimas,et J.Courtes, Sémiotique-Dictionnaire raisonné de la théorie du langague, pp 247-248-249

31- Claude Bremond, logique du récit, Seuil, Paris, 1973

32- Claude Bremond, la logique des possibles narratifs, communication n= 8, seuil, paris, 19. p 60

33- A.J.Greimas,et J.Courtes ,Sémiotique- Dictionnaire raisonné de la théorie du langague, p 246

34- مجموعة من الباحثين، السيميائية- أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، ص 10

35- رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، ص 17

36- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، ص 22

37- المرجع نفسه، ص 24

38- Groupe d`entre verne, analyse sémiotique des textes, p 16.

39- غريماس، السيميائيات السردية والمشاريع، ت سعيد بن كراد، ع8، إتحاد كتاب المغرب، المغرب، 1988. ص 131.

40- Algirdas.Julian.Greimas, Sémantique structurale, Larousse, Paris, 1966.

41- جوزيف كورتيس، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، ط1، الدار العربية للعلوم/ دار الاختلاف، لبنان/ الجزائر، 2007
42- مجموعة من الباحثين، السيميائية -أصولها وقواعدها، تر: رشيد بن مالك، ص 07-08